الأديب و المفكر الراحل

رمضان عبد الرحمن لاوند

كيف ولماذا نعلن سقوط الفكر الغربي ؟!

الحلقة الأولى

لماذا نعلن هذا السقوط؟

وهل صحيح أن الطريق أمامنا ستبقى مسدودة ما لم يتم هذا الإعلان؟

الناس حول هذا الموضوع مختلفون متباينون في الرأي .

ولا نقصد بالناس هنا ، أي ناس بل نقصد الفئة التي ارتبطت بموكب الغرب الفكري على صورة من صور الارتباط . أكان هذا الغرب هو الطرف القائل بالاقتصاد الحر والحرية الفردية أو كان هو القائل بالاقتصاد الموجه والحرية الجماعية كما تعارف الناس على التمييز بينهما.

من هؤلاء الناس من يجد في مثل هذا الإعلان عن سقوط الفكر الغربي ، محاولة تخريبية ورجعية لا مبرر لها . ومنهم من يقف منه موقف المنتظر فهو ممتنع عن تعيين رأي واضح صريح لأنه يجد نفسه في شبه متاهة لا يعرف أين تقوم جهاتها الأربع فهو متربص حتى يتجلى له ما حوله. ومن هؤلاء أيضاً، وهم قلة قليلة جداً ، ونحن منهم بالطبع، من يقف إلى جانب هذا الإعلان في حماسة وقوة تحدوه رؤية واضحة لأبعاد الموقف.

كل هذه الاتجاهات بدت لنا واضحة المعالم في مجلس من مجالس عدد من الأدباء العرب. فنحن لم نكد نعلن عن موقفنا هذا حتى شعرنا أن موجة من القلق والحيرة والرفض قد بدأت تسري وتنتشر في صفوف المستمعين أو المشاركين في المناقشة . وقد كانت فرصة فريدة تلك التي انكشفت فيها هذه الاتجاهات المتباينة والتي كانت كل واحدة منها عنوانا على وقائع وحقائق جديرة بالاهتمام والتفكير.

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

ولا غرابة في أن يندفع المثقف الذي استغرقته أشياء الفكر الغربي وقضايا الحضارة الغربية ، في إتجاه معاكس وأن يجد في مثل هذا الإعلان دعوة رفض لا مبرر لها وأنها أشبه شيء بخطط التخريب التي يوحي بها الانفعال المتعصب.

ولا يمكن لمثل هذا المثقف أنيقف غير هذا الموقف السلبي. لأنه بسلبيته أمام كل دعوة لممارسة تجربة فكرية حضارية عربية أصيلة يحمي نفسه قبل كل شيء ويؤكد شرعيته التي يعمل جاهدا على منحها كل فرص التفوق والظهور.

إنه لا يستطيع أن ينفي نفسه أو أن يرفضها . لأن نفي الذات ورفض الثقافة التي اكتسبها في حاجة إلى شجاعة روحية غير عادية لا تتوفر عناصرها إلا لقلة قليلة جدا من أبناء آدم.

لذلك كانت الحملة شديدة على دعوتنا إلى إعلان سقوط الفكر الغربي في منهجيته وطرائقه الفكرية وأساليب مواجهته للمشكلات والمعضلات الإنسانية المختلفة.

وقد بلغت حماسة بعض أصحاب هذه الحملة مبلغ الإحالة والمكابرة ولا سيما حين أثار بعض المجتمعين موقف جان بول سارتر من قضية الجزائر وسلط الضوء على موقفه الإنساني الصادق من حقوق الجزائريين في الحرية والاستقلال.

لقد اعتبر هذا البعض أن ما قيل حول موقف سارتر من قضية الفلسطينيين غير صحيح. وأن هذا المفكر الفرنسي لم يتخذ موقفا متعارضا مع مبادئه الاساسية.

وعجبنا من هذا الدفاع وزاد عجبنا حين قال من يدافع عن سارتر : " كيف نؤاخذ سارتر ونحن الذين امتنعنا عن الاجابة على سؤاله الذي طرحه حول موقفنا من مصير الصهيونيين في فلسطين ؟" . وتابع محامي سارتر يقول أيضا ، " نحن نرفض هذا الاتهام الموجه إلى المفكر الفرنسي لأن هناك من شوه رأيه".

والأعجب من ذلك أنه لم يقل لنا حقيقة رأي سارتر. ولم يسلط الضوء على موقفه الواقعي من قضية فلسطين .

ونحن لا نجد أية صعوبة في تفنيد عناصر هذا الدفاع وحيثياته لأن نظرة سريعة إلى أطراف الحوار الذي جرى بين المثقفين العرب في القاهرة وبين سارتر من ناحية ثم امتناع سارتر عن إعلان شجبه للعدوان الصهيوني الذي جرى في ٥ يونيو ١٩٦٧ ، كافية لتوضيح أبعاد الموضوع.

إن سارتر في قضية الجزائر كان يتصرف في ضوء تناقضات سياسية لعبت دورها في تقسيم الموقف الفرنسي . إن مصير الجزائر كان مرتبطا بمصالح المستعمرين الفرنسيين والرجعية العسكرية الفرنسية من ناحية كما كان من ناحية أخرى مرتبطا بموقف الفئات التي تجد في استمرار الاحتلال الفرنسي للجزائر عبئا ثقيلا على المصالح الفرنسية والاقتصاد الفرنسي.

إن وقوف سارتر إلى جانب القائلين بتحرير الجزائر وخروج الاحتلال الفرنسي منها يبقى موقفا نابعا من طرف من أطراف السياسة الفرنسية العامة . إنه لم يكن فيه أي تحد للخلفية الفكرية الروحية الحضارية لفرنسا ولهذا فالامتحان لم يكن عسيرا وشخصية سارتر الإنسانية كما يقولون كانت في قضية الجزائر شخصية غامضة الأبعاد أضفت عليها الدعاية لوناً خاصا كان يجد فيه المنتصرون لفكرة إنهاء الاحتلال الفرنسي مصلحة لهم.

لكن قضية فلسطين التي وقف منها الغرب كله بمافيه الصحافة ورجال الفكر ، غير اقلية قليلة وأجهزة الإعلام المتعددة ، موقف التأييد المطلق للعدوان الصهيوني كانت جديرة بتعيين حقيقة هذه الشخصية السارتارية . وتبين أن هذه الشخصية هي شخصية استعمارية قد زورت لها محتوياتها الإنسانية المزعومة يوم كانت أزمة الجزائر.

إن سارتر الذي رفض اتخاذ أي موقف صريح لمصلحة المعتدى عليهم من العرب لم يتردد في البحث عن المبررات التي تجعله في الصف الصهيوني .

أما أن المثقفين العرب قد عجزوا عن الإجابة على سؤاله حول موقف الجانب العربي من مصير الصهاينة في فلسطين فهذا لا يعني شيئا غير توكيد الانسحاق وظهور التفاهة في الفكر العربي المعاصر. ذلك أن المثقفين الذين يعجزون عن اتخاذ موقف صريح من قضية انفجرت أزمتها الدموية منذ عشرين عاما غير جديرين بكرامة الفكر وحمل رسالة الثقافة.

لقد كان جديراً بهؤلاء المثقفين أن يجدوا الجواب في مثل لمح البصر.

وهو ذو شقين : شق قانوني وشق إنساني.

أما من الناحية القانونية ، فإن حكم العدالة يقضي بعودة المعتدين من حيث أتوا.

ولو فرضنا أن الموضوع أصبح ذا طابع انساني فإن حكم الضمير يقضي بإنفاق ألوف الملايين من الدولارات على عمليات الإعادة إلى المواطن الغربية الأولى مع تزويد المرحّلين منهم بالاسباب المادية التي تساعدهم على ابتداء حياة كريمة في بلادهم الغربية وفي الأقطار الرأسمالية والشيوعية على السواء. بدلا من إنفاق هذه الملايين على تسفير المهاجرين وفرضهم على شعب آمن واغتصاب أرض ليست لهم.

ومما يقوّي أحد الشقين أو الشقين معاً أن الدوائر الإعلامية الأجنبية هي التي تعلن عن وجود ما تسميه بعقدة الشعور بالإثم نحو اليهود . وأن المحاربة السامية قد أصبحت في التشريع الغربي جريمة يعاقب عليها القانون.

فإذا كان ما تزعمه هذه الدوائر صحيحا فليس أسهل من اتخاذ هذا الحل وتنفيذه اذا حسنت النيات وصح ما يتردد في أوساطها عن وجود مثل هذه العقدة المزعومة وانتفت تهمة العدوان المبيت على الجانب العربي ومحيت آثار الأحقاد الصليبية القديمة.

لكن الأمر ليس كما يزعم المدافعون عن سارتر وأمثال سارتر.

الحقيقة هي أن من يفرض فيهم الدفاع عن قضايا الحرية والسيادة والأصالة الثقافية عند العرب يتصفون بشخصية مسحوقة وثقافة غربية وتفاهة في الحس الحضاري النابع من رؤية حضارية عربية سليمة. بل نقول أكثر من ذلك : إن ظاهرة الانسحاق قد بلغت درجة من القوة فقدت معها الفئات المثقفة العربية هذه شجاعة المفكر ووضوح المثقف الأصيل وايمان صاحب القضية البينة.

ومن هنا صحّ ما يقوله مالك بن نبي حين يعلن بأن الاستعمار لا يكون إلا حيث تكون قابلية استعمارية عند الشعوب الضعيفة الاخلاق.

إن جرأة جان بول سارتر على رفض قيم العدالة وتحيزه للعدوان الصهيوني أو على الأقل سكوته عن هذا العدوان وبحثه عن مبرر لاستمراره فوق التراب الفلسطيني، هي التي تفسر تفاهة الذين أجروا الحوار معه من أفراد النخبة المثقفة.

وإذا كنا قد أفضنا نسبياً في الحديث عن موقف سارتر فلأن المستهامين بالفكر الغربي والمدافعين عن استمرار الطغيان الغريب على صور الفكر والأدب والفن والفلسفات الاجتماعية الاقتصادية قد أثاروا موضوعه ودافعوا عنه وعن أمثاله ممّن سخروا ويسخرون بطفولة المثقف العربي وجبنه وتفاهة مواقفه.

لقد صدق الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم حين قال معلناً عن وجود قانون التغيير في مصائر الشعوب " إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ".

وما كان لأمثال جان بول سارتر أن يتخذوا موقفا انسانيا عادلا وهم الذين صدروا ويصدرون عن الاعتقاد بأن الحرية والحقوق الدستورية وشرعية البقاء موقوفة كلها على حاملي الحضارة الغربية وممثليها في العالم المعاصر.

ولما كان الشيء بالشيء يذكر وجواباً عن طلب بعض المشتركين في المناقشة ضرب المثل على ما نقصده من تغلب ظاهرة التبعية والتقليد الغبي للفكر الغربي عند المثقفين العرب نكتفي بالإشارة ، كما قلنا في أثناء المناقشة إلى الظاهرة الأدبية في ميدان التأليف المسرحي.

أوليس من الغرائب أن يلهث المؤلف المسرحي العربي وراء أساليب الكتابة المسرحية وموضوعات المسرح في الغرب في عملية تقليد لا تكاد تشبهها عملية مثلها من قبل ومن بعد عند شعب يعتز بشخصيته التاريخية وأصالته الحضارية؟

إذا كان المسرح عنوانا على تجربة مجتمعية حية فأين هي هذه التجارب التي تدفع المؤلف العربي إلى الركض اللافت وراء موضوعات مسرحية تعكس ضياع حضارة استهلكت كل أساليب البحث عن الحقيقة ومناهج السعي إلى إيمان فتي جديد ؟

أين هو دور العبث والغربة واللامعقول وما يسمى بالمسرح الذهني في حياة الشعب العربي الذي لم يتجاوز في مسيرته الجديدة مرحلة السيادة الوطنية بل لم يبلغها بعد ؟.

وهل هناك ما هو أشد تخريباً للنفوس والإرادة العربية والحاجة إلى الكفاح من أجل الحرية والسيادة وتدعيم المؤسسات القومية وفي مقدمتها اللغة وثقافة التراث ، من مثل هذه الموضوعات المسرحية التي تغذي اليأس العقلي والإلحاد بالقيم وترفع شعارات الشك في جدوى أي عمل اجتماعي بناء ؟.

أوليس هذا النوع من التأليف المسرحي خيانة لرسالة الفكر في صميم مأساة البقاء التي يعانيها الشعب العربي أمام التهديد الصهيوني بالإزالة والفناء ؟.

أولا يدلّ هذا المسرح الغريب العابث واللامعقول والمتميز بالترف الذهني على أن حملة رسالة الأدب في عالمنا العربي هم جماعة من الغرباء المدسوسين على ثقافتنا القومية ؟.

ألا تكفي الظاهرة المسرحية هذه عنواناً على انسحاق الشخصية عند المثقف العربي ؟ أولا تدفعنا هذه الظاهرة إلى العمل على تحريرنا من التبعية الفكرية للغرب ؟.

أوليس من عبث الأقدار بنا أن يستمر الحوار منقطعا بين العقل العربي المثقف وبين جماهير الشعب العربي التي تعيش منعزلة مقهورة مضطهدة ؟.

ومما يزيد الطين بلة ويؤكد ظاهرة التزوير الثقافي عندنا نحن العرب هذه الشنشنة القائلة بوجوب استعمال العامية لغة للأدب في المسرح وغير المسرح . وقد بلغ من انتشار هذه الظاهرة وشيوعها أنها أصبحت لغة الكثرة الساحقة من المؤلفين المسرحيين يرافقها دعوى مزعومة عن صعوبة العربية الصحيحة وتخلّفها عن ركب الأدب المعاصر وعجزها عن الاستجابة لمطالب الثقافة. وزاد البلاء شدّة حين رافق شيوع العامية ضحالة في التفكير وتفاهة في التعبير العربي الفصيح واستهتار بقواعد اللغة بدعوى أن العربية ذات قواعد جامدة معقدة ، وهذه كلها مبررات غير مباشرة لهبوط المستوى الثقافي عند من يتصدرون صفوف الإعلام والتوجيه والتربية والتعليم.

هكذا فقد أدبنا رجولته ونخوته وصلابة وجوده . لقد رضي الابتذال لنفسه وأطلق عليه اسم " العبقرية" ووصفه بالحيوية وأفاض عليه فنوناً من التشويه والتلاوين ورافقه بألوان من الصخب الغوغائي. وبذلك أصبح أدبنا أدباً غوغائياً وهمائياً لا أدب طليعة جادة ذات رجولية في الأخلاق وصدق في الإيمان الرسالي.

أفليس من واجبنا أن نقول لهؤلاء الناس المتصدرين لركب الفكر العربي المعاصر: فكّروا بعقولكم واكتبوا عن تجاربكم في ضوء مبدأ التجربة والخطأ ؟

أوليس من دواعي المطالبة بالحرية والسيادة وتحقيق الذات أن نشترط على المثقفين أن يجعلوا من العمل الجاد والكفاح الدائم منطلقا لنشاطهم الفكري والأدبي؟

ولو شئنا التمثيل لظاهرة التبعية عند المثقف العربي في غير إنتاجنا الأدبي لوجدنا في مختلف ميادين الفكر الشواهد الحاسمة والبراهين الدامغة التي لا ترد أبدا . ولكننا نرجىء القيام بهذه المحاولة إلى مناسبة قادمة .

كلّ ما في الأمر أننا قصدنا إلى جعل هذه الملاحظات مدخلاً لتعيين الخطوط العامة لمعنى الدعوة إلى " إعلان سقوط الفكر الغربي " . أي الدعوة إلى تحقيق الذات العربية بحيث تستغل هذه الذات في رسم ملامح شخصيتها التاريخية وتتصف بالصفات النفسية والأخلاقية التي تقتضيها أصالة الفكر والعاطفة وصحة الرؤية.

وقد يظن البعض ، وهذا ما حدث فعلا، أننا بهذا الموقف نطالب بالكفّ عن قراءة النتاج الفكري أو الأدبي عند الغرب. وقد يظن البعض الآخر أننا نطالب بالامتناع عن متابعة الأبحاث العلمية واقتباس المنجزات التقنية. وفي هذا الظن أو ذاك وهم كبير يهمنا أن نسلط الضوء عليه ونزيل أثره.

إنه لم يخطر في بالنا مثل ذلك أبدا. فالتزوّد من أفكار الغرباء والتعرف الى تجاربهم هما في يقيننا ضرورتان رئيستان للمعرفة. ولكن هذا لا يعني أن نتجاهل ثقافتنا ونتنازل عن تراثنا اللغوي ونهمل ثروتنا الفكرية ذات الطابع الإنساني.

لقد كان أدبنا بالأمس عنواناً على تجربة حية لم ترفض الروافد الغريبة ولكنها لم تتنازل عن عمودها في الثقافة والعقيدة والفن. لقد بقي أدبنا ذا طابع عربي اسلامي نابع من صميم تجربتنا الحضارية واجتازت لغتنا فنونا من التحولات واستوعبت معاني جديدة واتسعت أمامها الرؤية الفنية والفكرية ولكنها بقيت شيئاً غير التراث الأدبي عند اليونان القدماء وغير اليونان . كما اجتاز فكرنا الفلسفي مراحل عديدة من التحول واستوعب معاني جديدة وتلقى فنوناً من التجارب الروحية والتأملات الغريبة ومع ذلك فقد بقي هذا الفكر رغم ظهور عدد من المنحرفين الشعوبيين في مجالات العقيدة والثقافة ، فكراً عربياً اسلامياً تتميز معالمه بالوضوح والدقة الفائقة حتى ولو وضع في جمهرة من الأفكار الغريبة والفلسفات الوافدة.

أما فيما يتعلق بالمنهج العلمي وجملة الأبحاث المختبرية وما حققته من المنجزات فليس من عاقل يدعو إلى إهمال هذا الجانب من النشاط العملي والدراسات العلمية المادية . واذا كان هناك ما نتحفّظ منه فهو هذا الفكر الفلسفي النظري الذي يعلن أصحابه أنه مرتكز إلى منهجية البحث العلمي المادي . وهو موضوع آخر لا علاقة له بالتقنية العصرية ومنجزاتها الهامة التي غيرت وجه الدنيا وأدخلت في حياة الملايين من الناس جملة من التعديلات الجذرية الأساسية.

ولعل الشرط الأساسي الذي نشترطه على أنفسنا لنكون على مستوى المسؤولية الثقافية وعلى وعي صحيح في الميدانين القومي والأخلاقي هو إحياء الاطار الأساسي لشخصيتنا القومية الذي هو اللغة العربية من ناحية وأن نكتب

أدبنا في ضوء ما تفرضه علينا معركة الكفاح من أجل التحرر والسيادة أمام موجات الوافدين الغرباء من الصهاينة وما يمثلونه من الأخطار الفكرية والأخلاقية والاقتصادية.

إن على مسرحنا أن يكون بلغته وموضوعاته ومثالياته مسرحاً مقاتلا مكافحا واضح الرؤية فيه رجولة المؤمن بقضيته لاترف المتخم الغائب عن عصره بفنون من الفكر العابث أو الغريب أو اللامعقول وبتلاوين الألاعيب الذهنية.

إن العربية الحية بصلابتها التركيبية وأدبها الحافل بالتجارب الواقعية المشدودة إلى همومنا ومُثلنا وضروراتنا الأخلاقية هي المدخل الأساسي لبناء تراث مستقبلي سليم ولا سبيل إلى بناء هذا النوع من العربية إلا بالتحرر من وصاية الفكر الغربي وإعلان سقوطه في عقولنا ونفوسنا والاستقلال عنه.

وسنعود إلى هذا الموضوع لمتابعة البحث في جوانبه في حلقات قادمة على أمل أن نجد في الاقلام العربية الفتية الردود التي يفرضها باعتباره بحثاً متصلاً بقضايا قومية مصيرية.